النص :

إن مفهوم النص عند العرب قد شاع استعماله وانتشر فوظف كتبت فيه الكتب؛ إلا أن القارئ يرى أن هناك اضطرابا أو تشويشا إن لم يكن ظاهرا فإنه يستنتج من بين السطور، وهو ناتج عن مفهوم الضيق والخاص للنص في التراث العربي الإسلامي، وعن قلة الإحاطة بظروف إمكان حدوث التطور الجديد لمعنى النص.

فجاء في لسان العرب في مادة "نصص" عدة معان للنص منها : الظهور والبيان، و ذلك في قول ابن منظور: "النص : رفعك الشيء . نص الحديث ينص نصا: رفعه . و كل ما اظهر، فقد نُص وقال عمر بن دينار: ما رأيت رجلا أنص للحديث من الزهري أي أرفع له وأسند، يقال : نص الحديث إلى فلان أي رفعه، و كذلك نصصته إليه ونصت الظبية جيدها: رفعته، ووضع على المنصة أي على غاية الفصيحة والشهرة والظهور، والمنصة: ما تظهر عليه العروس لترى.

و يذكر القاموس المحيط: "نص الشيء حركه، ونص العروس أقعدها على المنصة"

أما تاج العروس فتقرأ فيه: "نص الشيء أظهره و كل ما ظهر فقد نص"، و أيضا قوله: " ... والنص: التوقيف... والنص: التعيين على شيء ما، وكل ذلك مجاز من النص بمعنى الرفع والظهور، قلت: ومنه أخذ نص القرآن والحديث، وهو اللفظ الدال على معنى لا يحتمل غيره وقيل: نص القرآن والسنة : ما دل ظاهر لفظهما عليه من الأحكام، وكذا نص الفقهاء الذي هو بمعنى الدليل ، بضرب من المجاز، كما يظهر عند التأمل و قوله وتناص القوم :ازدحموا ، هو مأخوذ من قولهم: نص متاع ينصه نصا ، إذا جعل بعضه على بعض.

ويورد المعجم الوسيط بعض الدلالات المولدة للنص "فالنص صيغة الكلام الأصلية التي وردت من مؤلفها، والنص ما لا يحتمل إلا معنى واحدا أو لا يحتمل التأويل، والنص من الشيء منتهاه و مبلغ أقصاه "

"ويشتق النص (texte) في اللغات الأجنبية من الاستخدام الاستعاري في اللاتينية للفعل(texture) الذي يعني (يحرك): (weave) أو ينسج ويوحي بسلسلة من الجمل والملفوظات المنسوجة بنيويا و دلاليا.

ويتضح مما تورده المعاجم القديمة والحديثة أن الدلالة الحديثة للنص لم تكن غائبة كليا في المعجم العربي وهي تلتقي أيضا مع دلالته في اللاتينية التي تسير إلى معنى بلوغ الغاية والاكتمال في الصنع، وهذا يعني لابد أن ينتقل إلى النص الأدبي الذي يمتاز عن النص العادي، يقول ابن الأعرابي : "النص الإسناد إلى الرئيس الأكبر فإنه يتضمن بيانا لخاصية من خصائص النص انتبه إليها المحدثون وهي ارتباط النص ببؤرة أو قضية كبرى (التيمة)، أي أن كل أجزاء النص إنما قامت لخدمة هذه القضية".

أما أبو الهلال العسكري فكانت فكرة النص عنده باعتباره صناعة لم تغب عن ذهنه وقد سمى كتابه بـ"الصناعتين" وفي هذا الصدد لاحظ رولان بارت أن علماء العرب هم يتحدثون عن النص قد استعملوا تعبيرا جميلا وهو الجسم الحقيقي أو المثن الصحيح وهو ما يتعلق بدلالة وتشكيلاتها.

كما وظفت لفظة "نص" في كتابات النحاة وعلماء البلاغة، إلا أننا لا نجد تعريفا يتعرض لها على الرغم من رواج هذه اللفظة. فقد ورد في كتاب (الخصائص) لابن جني ، لفظة (نص) نصيع متباينة في أكثر من موضع، منها قوله متحدثا عن رأي المتكلمين في معنى الكلام: "و قد علمت بذلك تعسف المتكلمين في هذا الموضع و ضيق القول فيه عليهم، حتى لم يكادوا يفصلون بينهما ، والعجب ذهابهم عن نص سيبويه، وفصله بين الكلام والقول ولكل قوم سنة وأمامها "

والتأمل في السياق الذي وردت فيه كلمة (نص) في الموضع السابق من كتاب ابن جني يصل إلى أنه استعملها بمعنى الدال الذي يحمل مدلولا (رسالة) متكاملا ويقدم للمتلقي حكما جديدا لم يكن يعرفه من قبل ، ويوحي هذا الاستعمال كذلك بثبات هذه الرسالة ووضوح

مضمونها، و أنها لا تحتمل تأويلا ووردت كلمة (نص) كثيرا في كتابات اللغويين بهذا المعنى يمكن أن نشير إليها ببعض المواضيع.

يقول ابن هشام في معنى اللبيب : "أما الأول فلان عطف البيان في الجوامد بمنزلة النعت في المشتقات فكما أن الضمير لا ينعت كذلك لا يعطف عليه عطف بيان، و وهم الزمخشري فأجاز ذلك و هو لاعن هذه النكتة وممن نص عليها من المتأخرين أبو محمد ابن السيد و ابن مالك و القياس معهما في ذلك".

بعد التتبع للكتابات الأدبية العربية القديمة لا نجد بونا شاسعا بينهم و بين اللغويين في التعامل مع هذا المصطلح ، فهم لم ينصوا على تعريف محدد له ، بل تداولوه في كتاباتهم بالدلالة نفسها التي وردت عند اللغويين (أي الظهور والبيان والدلالة على الشيء الثابت) جاء في (أدب الكاتب) لابن قتيبة : "قوله نص الحديث إلى فلان أي رفعه إليه و هو من النص السير و هو أرفعه"، و جاء في (صبح الأعشى) في حديثه عن التفاؤل بأيام الأسبوع: واعلم أنه لا أصل لذلك من الشريعة ولم يرد فيه نص من كتاب و لا سنة.

والتأمل في المعاني السابقة للنص يلاحظ أنها ليست بعيدة عن المفهوم الاصطلاحي له فهي – و إن لم تصرح بذلك – تتضمن سمات النص وخصائصه.

إن هذه المفاهيم التي أوردناها في أثناء الحديث عن معالجة القدماء لدلالات النص تشكل مجموعة من المعايير قننها المحدثون في نظرية متكاملة المعالم، تعرف بعلم النص، تركز على الجوانب الآتية .

- كون النص منطوقا أو مكتوبا أو كليهما .
- مراعاة الجانب الدلالي .
- مراعاة التحديد الحجمي.
- مراعاة الجانب التداولي.
- مراعاة جانب السياق.
- مراعاة جانب التماسك.

- مراعاة الجانب الوظيفي للنص.
- مراعاة التواصل بين المنتج والمتلقي.
- الربط بينه وبين مفاهيم تحويلية مثل الكفاءة و الأداء... و غيرها.
- إبراز كونه مقيدا.

ويعرف المحدثون النص بتعريفات عديدة منها ما أورده محمد مفتاح من تعريفات جمة للنص توجيهات معرفية ومنهاجية مختلفة، فهناك التعريف النبوي، وتعريف اجتماعيات الأدب والتعريف النفساني الدلالي وتعريف اتجاه الخطاب ... ليخلص إلى تعريف واحد في النهاية أما هذه التعريفات فهي :

(مدونة كلامية، يعني انه مؤلف من كلام ...

حدث: أن كل نص هو حدث يقع في زمان و مكان معينين...

تواصلي: يهدف إلى توصيل معلومات و معارف ونقل تجارب ...إلى الملتقى.

تفاعلي : أي إقامة علاقات اجتماعية بين أفراد المجتمع.

مغلق: أي انغلاق سمته الكتابية الأيقونة اللاتي لها بداية و نهاية .

توالدي:إن الحدث اللغوي ليس منبثقا من عدم وإنما هو متولد من أحداث تاريخية ونفسية ولغوية ... و تتناسل منه أحداث لغوية أخرى لاحقة له.

فالنص إذن مدونة حدث كلامي ذي وظائف متعددة.

كما أنه قد نتج عنه كلمة "نص" اشتقاقات لا تخرج عن المعنى الأصلي (نسيج) ، ثم نقل هذا المعنى إلى نسيج النص، ثم اعتبر النص نسيجا من الكلمات و إن العلاقة لبنية في هذا النقل ، فإذا كان النسيج المادي يتكون من السدى و اللحمة و المنوال ... فإن النص يتكون من الحروف والكلمات المجموعة بالكتابة.

و بالتالي فالنص هو حقا حيز كلامي أو مقالي يتعدد معناه، و تتفاضل دلالته، و تتنوع مقاماته، و تختلف سياقاته وتتعارض بياناته، تترتب مستوياته، وتتراكم ترسباته ... بل النص حيز ينطوي على بياضات وفراغات، وتخترقه شقوق و فجوات .

كما يتحدث "محمد مفتاح" عن مفهوم النص، بقوله هو:

"النسيج في الحقيقة، ثم تفرعت عنه استعارات شملت مجالات متعددة، ومنها أنواع المكتوبات وأصنافها التي لها معنى قار وثابت وحقيقي، سواء أكان المعنى ظاهر أم مستنبطا بالتأويل".

وهذا يشي بأن الطابع الإشكالي لا يفارق مفهوم النص، بما هو نسق تواصلي، وأحد مكونات الثقافة الإنسانية المتشعبة في جانبها التواصلي والمعرفي، حيث أصبح ذا طابع عام يطلق على كل جزء من أفنان هذه الثقافة، فاندثر على إثر ذلك المفهوم القديم له، المرتبط بالكتابة ليظهر مفهوم جديد يتسم بالشمولية، كما يقول "رولان بارت":

"..النص في المفهوم الحديث، ليس بالضرورة هو النص الأدبي بالمفهوم الأدبي المتداول، بل إن الإيقاع الموسيقي نص، واللوحة الزيتية نص، والشريط السينمائي نص، والمشهد التمثيلي نص، وهلم جرا"،

فكل حقل يحاول أن يجره إلى مجاله لتوظيفه حسب اجراءاته المنهجية.

بالإضافة إلى ما قيل، فإن الكثير من المصطلحات ترد إلى جانبه – النص– كمرادفات أحيانا، ومصطلحات تستدعي التداخل معه أحيانا أخرى، كالخطاب، والمتن، والإنتاجية..، ونلاحظ أن الشائع من المصطلحات التي تختلط مع النص عادة هي الخطاب.

يذهب "رولان بارت" في معرض حديثه عن النص إلى أنه:

"نسيج الدلائل، والعلامات التي تشكل العمل الأدبي، ما دام النص هو ما تثمره اللغة، وما دامت اللغة ينبغي أن تحارب داخل اللغة، لا عن طريق التبليغ الذي تشكل هي أداة له، وإنما بفعل الدور الذي تقوم به الكلمات، والتي تشكل هي مسرحه، سيان أن أقول إذن أدبا أو كتابة أو نصا (أوخطابا)" ، لأنه يرى أن النص مرتبط بالخطاب، حتى أن الأول "لا يستطيع أن يتواجد إلا عبر الخطاب".

بعدما رجع "بارت" مسميات عديدة كالإيقاع الموسيقي، واللوحة الزيتية... تحت اسم واحد وهو النص، يقر بعد ذلك بأن النص هو الأدب، وهو الكتابة، وهو الخطاب، لتتماهي بذلك كل الحدود الفاصلة بينهما. ولهذا رفض مبدأ الأجناس وأنكر نظرية الأنواع بأخذه مفهوم النص والكتابة، حيث إنه يقول عن النص من منظور تفكيكي: إن النص

"لا ينحصر في الأدب (الجيد). إنه لا يدخل ضمن تراتب، ولا حتى ضمن مجرد تقسيم للأجناس. ما يحدده، على العكس من ذلك، هو قدرته على خلخلة التصنيفات القديمة".

يعني أن النص:

"ممارسة تهدف إلى خلخلة الأجناس الأدبية: في النص لا نتعرف على شكل الرواية، أو شكل الشعر أو شكل المحاولة النقدية. النص يحتوي دوما على معاني إلا أنه لا يحتوي على عودة المعنى. فالمعنى يأتي ثم ينصرف، ثم ينتقل إلى مستوى آخر وهكذا دواليك".

أي أن النص غير قابل للانغلاق أو التمركز، وقد يتحدى كل الحواجز العقلانية أو القرانية، ويعتمد على القارئ لتوليد التفاعل والتجاوب معه؛ أي مقدار وعي المتلقي، أما الكتابة فتعني عنده أدبا نموذجيا تجري فيه "زعزعة الذات الفاعلة وتقويضها، وتشتيتها في الصفحة ذاتها"، وهي بهذا المعنى الجديد لغة خاصة لا تنتج إلا نصوصا.

و النص لا يكون بالضرورة منتجا من طرف متكلم واحد، ففي المناقشات و المحادثات يكون إنتاج النص موزعا بين عدد من المتكلمين، هؤلاء المتكلمون يمكن أن يخضعوا لسلم رتبي وخاصة لما يتعلق الأمر بالخطاب المنقول، أي لما يتضمن المتكلم في حديثه أقوالا لمتكلم آخر هذا التنوع في النصوص هو شكل من أشكال تباين النصوص داخل النص الواحد والشكل الآخر من تباين النصوص يتمثل في العلاقات الأيقونية (رسوم – صور) تلك التي توظفها النصوص كعلامات غير لسانية .

باختصار النص يتعلق بالنموذج التجريدي الذي ينظم الملفوظات تحت قاعدة نماذج الخطابات و قد قدم " جان ميشيل آدم " معادلتين تبنيان استقلالية النص، وتجريديته، وحسبه ، يجب عزل النص عن محيطه و ظروف إنتاجه.

خطاب = نص + سياق.

نص = خطاب – سياق.

و يبدو أن مصطلح النص ذاته، يمثل إشكالية معقدة و كبيرة في النقد الحديث وذلك لأنه لم يعد يقتصر على دلالات المعجمية والاصطلاحية المعروفة بل راح يكتسب دلالات جديدة و يتداخل مع عدد من المصطلحات المجاورة مثل مصطلحي الخطاب (Discours) والعمل أو الأثر الأدبي (Work).

ويتداخل مفهوما النص والخطاب تداخلا كبيرا في الخطاب النقدي الحديث لدرجة يصعب فيها أحيانا التمييز بينهما ... فيذهب بعض النقاد والباحثين إلى قصر النص على المظهر الكتابي فيما يقصر مفهوم الخطاب على المظهر الشفوي، ويقدم (فان دايك) تمييزا أكثر تحديدا فهو ينظر إلى النص بوصفه يمثل بنية عميقة، بينما يمثل الخطاب بنية سطحية ، أو ينظر إليهما بوصفهما مظهرين : المظهر التجريدي والمظهر الحسي، فالنص مظهر تجريدي بينما الخطاب يجسد وحدة لسانية أساسية تتجلى في ملفوظ واحد.

و يرى روبيراسكاربيت : أن (اللغة الشفوية تنتج خطابات (rs Disdiscou) بينما الكتابة تنتج نصوصا (des textes) و كل منها يحدد بمرجعية القنوات التي يستعملها، الخطاب محدود بالقناة النطقية بين المتكلم و السامع وعليه، فإن ديمومته مرتبطة بهما لا تتجاوزهما، أما النص فإنه يستعمل نظاما خطيا وعليه فإن ديمومته رئيسية في الزمان والمكان.

و في مجال السرديات يستخدم مصطلح النص أحيانا مقابلا لمصطلح الخطاب أو الحبكة أو ما يسمى أحيانا بالمبنى الحكائي (Sujet) ، و يفرق سعيد يقطين بين مصطلحين

النص و الخطاب (...) فالخطاب مظهر نحوي يتم بواسطته إرسال القصة والنص مظهر دلالي يتم خلاله إنتاج المعنى من لدن المتلقي.

و في الحقيقة أن الخطاب متصل بالكتابة العامة وهو ملك مشاع للعامة من القراء بينما يختص النص بالكتابة الإبداعية الخاصة بنوع من الكتاب بسبب من طابع التمرد و الفرادة والتجديد التي يتميز بها النص عن الخطاب.

لكن دلالة النص هذه لم تبق محصورة (في النص الأدبي) بل غدت شاملة فنون التعبير الفني الأخرى أيا كانت، مقروءة أو مسموعة أو منظورة أم متذوقة بملكة الإدراك الثقافية ومن هنا ظهر مصطلح (النص الفني) الذي يشمل كل الفنون بما فيها الأدب .